تناهى الليل وتقارب النهار

القديس لوقا رئيس أساقفة سيمفروبول وسائر القرم
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

لا تكونوا مَدينين لأحد بأي شيء غير المحبة المتبادلة. مَن أحب غيرَه فقد أكمل الناموس. فإن الوصايا: "لا تزنِ"، "لا تقتل"، "لا تسرق"، "لا تشهد بالزور"، "لا تشتهِ"، وسائر الوصايا الأخرى كلها محتواة في هذه الكلمة: "أحبب قريبك كنفسك." المحبة لا تؤذي القريب؛ إذاً المحبة هي تكميل الناموس" (رومية ١٣:٨-١٠).

ألا تدركون يا أحبائي أن كلمات الرسول القديس هذه تتطابق مع ما قلته لكم يوم الأحد الماضي عن دينونة المسيح الأخيرة؟ أخبرتكم أن الرب يسوع المسيح لن يسأل الناس إلا عن شيء واحد في دينونته، فقط عمّا إذا كانوا قد عملوا أعمال رحمة أم لا، وأولئك الذين عملوا أعمال الرحمة سيمجدهم إلى الأبد في ملكوته، وأما القُساة، فاقدو الرحمة، الذين لم يساعدوا أخاهم أبداً، سيحكم عليه بالعذاب الأبدي. "هذَا وَإِنَّكُمْ عَارِفُونَ الْوَقْتَ، أَنَّهَا الآنَ سَاعَةٌ لِنَسْتَيْقِظَ مِنَ النَّوْمِ، فَإِنَّ خَلاَصَنَا الآنَ أَقْرَبُ مِمَّا كَانَ حِينَ آمَنَّا" (رومية ١٣:١١).

فاعملوا، تصرّفوا حسب ما تمليه المحبة، أظهروا المحبة للناس، إذ قد حان الوقت للنهوض من النوم، من نوم الخطيئة، من العيش في الظلمة والديجور . "قَدْ تَنَاهَى اللَّيْلُ وَتَقَارَبَ النَّهَارُ، فَلْنَخْلَعْ أَعْمَالَ الظُّلْمَةِ وَنَلْبَسْ أَسْلِحَةَ النُّورِ. لِنَسْلُكْ بِلِيَاقَةٍ كَمَا فِي النَّهَارِ: لاَ بِالْبَطَرِ وَالسُّكْرِ، لاَ بِالْمَضَاجِعِ وَالْعَهَرِ، لاَ بِالْخِصَامِ وَالْحَسَدِ. بَلِ الْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، وَلاَ تَصْنَعُوا تَدْبِيراً لِلْجَسَدِ لأَجْلِ الشَّهَوَاتِ."

لماذا يقول الرسول أن الخلاص أقرب إلينا الآن، وقد أصبحنا مسيحيين كاملين إلى حد ما، مما كنا عليه عندما آمنا؟ يقول هذا لأن معرفة طريق المسيح ومعرفة القلب وإدراكه لكل وصايا المسيح لا تُعطَيان على الفور، بل تدريجياً، إذ يحفظ الإنسان في حياته وصايا المسيح أكثر فأكثر أثناء مسيرة حياته في اتباع المسيح.

إن هذا مشابه لما يحدث في الطبيعة. أنتم تعلمون أنه قبل أن تشرق الشمس بوقت طويل، يبدأ الفجر، يزداد الضوء توهجاً أكثر فأكثر، ويزداد سطوعاً وإشراقاً حتى تشرق الشمس وتنير كل شيء وكل شخص بنور النهار.

وبالمثل، فإنَّه في قلوب البشر، لا يأتي نور المسيح الكامل مباشرةً، ليس على الفور، بل تدريجياً وحسب، ليس إلا عندما نغتصب ملكوت الله بالقوة، ونبذل جهوداً كبيرة لنصبح مستحقين للرب يسوع المسيح، عندها فقط يكون "قد تناهى الليل واقترب النهار" عند هذه القلوب.

أنتم تعرفون الظلمة المادية، وتعلمون أنه عندما تغرب الشمس ولا يشرق القمر، يحل الظلام العميق. هذا الظلام لا ينيره إلا وميض خافت من النجوم السماوية، والقليل فقط يضيء. هكذا هو الحال في النفس البشرية.

لا بد أن يشرق النور في النفس البشرية، لا بد أن يمر فيها ليل، ليلةُ جهلٍ لله، ليلةُ شهوة، إفراطٌ في الطعام، وإشباعٌ لشهوات الإنسان وأهوائه، ثمّ لا بدّ أن يشرق النور.

هناك الكثير من البشر التعساء الذين يسود الظلام دائماً في نفوسهم، مثل ظلام الليل، ولكن عندهم أيضاً نور خافت في نفوسهم، مثل ضوء النجوم المتلألئة. إنه نور ضميرهم، فالضمير يوقظنا من الظلمة، الضمير يرينا النور، الضمير يشير إلى أننا نسير في الظلمة، في الظلمة الدامسة، الضمير يدلنا على طريق النور.

وفقط عندما يستمع الإنسان باهتمام عميق لصوت ضميره، عندها فقط سيبدأ الظلام يتبدد عنه، ويشرق نور الشمس.

وأما الذين يدوسون دم المسيح فإنهم لا يؤمنون بشيء مقدس، والذين يعيشون حسب مشيئة جسدهم، ويطيعون أهواءهم وشهواتهم، هؤلاء لن يضيء لهم الطريق، بالنسبة لهؤلاء لن يمرّ الليل، وفي الظلام العميق سينهون حياتهم المظلمة الخاطئة.

وما معنى قول الرسول: "البسوا المسيح"؟ كيف يمكنك أن تلبس المسيح؟ إن الملابس الدافئة في الشتاء، والملابس الصيفية في الصيف تحمي جسمنا من البرد والحرارة.

لكن روحنا تعاني أيضاً من البرد والحرارة - من برودة الوساوس الشيطانية ومن حرارة الأهواء والشهوات. ومن الضروري، من الأساسي أن تكون أرواحنا أيضاً دافئة، تماماً كما تكون أجسادنا دافئة. ما الذي يدفئ أرواحنا؟ فقط نعمة الروح القدس، لأنها ضرورية لأرواحنا مثل لباس الجسد، إذ بدون هذه الحماية لن يحمينا شيء من البرد الجهنمي؛ ولن نرد عن أنفسنا بأي شكل من الأشكال حرارة الأهواء والشهوات اللعينة.

وهكذا، إذ نمضي أيضاً وأيضاً على الطريق الضيق والشائك الذي أشار إليه المسيح، وإذ نمتلئ بالمحبة لإخوتنا، وإذ نتمم وصايا المسيح، فإننا نحقق إرادته - إلى الحد الذي نلبس فيه المسيح في نفوسنا ونلبس الثياب الروحية المقدسة.

يقول الرسول الكريم أنه عندما يمر الليل ويشرق النور، يجب علينا أن نغيّر كامل حياتنا، أن نغيرها تدريجياً. لا ينبغي لنا أن ننغمس في الولائم، أو السكر، أو الشهوانية، أو الحسد، أو شهواتنا الخاصة، بل يجب أن نعيش حياة جديدة، حياة مقدسة، حياة نقية.

وكم من إخوتنا البائسين الذين لا يعرفون هذا، ولا يريدون سماع كلمات الرسول هذه، الذين لا يخشون أن يسكروا بالخمر حتى في الأيام المقدسة، حتى في يوم الجمعة العظيمة، إنهم لا يخافون من شرب الخمر ولا من أن ينغمسوا في الولائم. لا نسمحنّ بأن يحدث هذا لنا!

لقد أتى زمان الصوم الكبير، الوقت الذي يجب أن نتعلم فيه التعفف، الامتناع ليس فقط عن الإفراط في تناول الطعام والأطباق اللذيذة، ولكن كل أشكال التعفف - الامتناع عن شهواتنا، الامتناع عن الكلمات الشريرة وعن الحقد والكراهية.

يبدأ هذا الزمن المبارك عندما نعيش بالضرورة بطريقة مختلفة تماماً، مواضِعين جسدنا بالصوم، فإن أهمية الصوم عظيمة.

إذا تعلمنا إخضاع شهوات الجسد، فسنتعلم شيئاً فشيئاً الامتناع عن كل ما يدنس أرواحنا، وعن كل إثم، وعن النجاسة الروحية والجسدية.

لقد حان الوقت المبارك الذي فيه علينا أن نتوقف عن الولائم، أن نترك الشهوانية، أن نحزن على خطايانا - لقد حان وقت النعمة هذا.

افرحوا بأنه قد جاء، وانفقوه كما علمنا الرسول القدوس. آمين.

* عظة في أحد مرفع الجبن، ٧ آذار ١٩٥٤

Source: The Night Has Passed and the Day is Near. By St. Luke, Archbishop of Simferopol and All Crimea. https://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/02/homily-for-cheesefare-sunday-night-has.html